

Анеора Имраго



١٢٩٢

العُصُورُ

العدد ٣ مجلد ١ شمع الحكمة يجذبنا إليك نوفمبر ١٩٢٧

شارلوت كوردای

أوعظة مارا في الثورة الفرنسية

إن شارلوت كوردای ، أشد نساء الثورة الفرنسية اعتماداً على نفسها وأكثرهن
أضراراً وأقواهن ارادة وأبينهن شخصية ، لم تستمد من وحى بشر مثلها ، بل
سمعت وحى ضميرها ، على الضد من كل النساء اللاتي عرض ذكرهن في تاريخ
الثورة الفرنسية . لهذا السبب ضحت شارلوت كوردای بنفسها من غير حاجة
إلى التضحية في سبيل وطنها ، ولو عاشت لأدت لذلك الوطن خدمات جليلة
ذات بال . ولقد قال كثير من السياسيين الذين ضمّتهم وإياها رابطة المبدأ السياسي ،
أنهم لو عرفوا قصدها ووقفوا على نياتها ، لحولوا خنجرها إلى صدر غير صدر
« مارا » . لأن المرض كان قد أهلك « مارا » وكان لابد من أن يبلغ به إلى
الموت في أقرب حين .

إن شارلوت كوردای « ملاك القتل » كما يدعوها لامارتين تنزل في نظر

الكثيرين منزلة تمثل فيها صفات البطولة الصحيحة . لهذا حق لشارلوت أن تتمخر بان يكون من أسلافها « بيير كورنى » أعظم بطل من أبطال الادب الفرنسى ، الذين خطت يراعتهم مأساة محزنة فى تاريخ فرنسا .

ولدت شارلوت كورداي فى العقد السابع من القرن الثامن عشر . ولقد شهد ذلك القرن مولد كل أبطال الثورة الفرنسية وبطلاتها .

فى منزل ريفى مشيد على النسق النورماندى فى « روستراى » وفى اليوم السابع والعشرين فى شهر يولييه سنة ١٧٦٨ وضعت السيدة « مارى شارلوت جاكلين دى كورداي » خامس أطفالها وثالثة بناتها ، مارى شارلوت ، التى عرفت فيما بعد بين ذوى قرباها وفى التاريخ باسم « شارلوت كورداي » . أما أسرتها فتتنمى الى طبقة الاشراف ، وأبوها ممن يعرفون فى فرنسا باسم اشراف الريف الذين يعيشون فى دخل ما يملكون من عقار .

والدها « چاك فرنسوا دى كورداي » سيد « دارمون » وحائز لرتبة فارس . وكان من عادته ان ينشئ أولاده على أخص القواعد الاقتصادية . وينسب المؤرخون الذين ترجوا عن حياة شارلوت كل مافى اخلاقها من حب النظام والرغبة فى بحث مفصلات كل موضوع يلقى اليها ، أو يعرض لها ، تلك الصفات التى تتم عنها كل أعمال شارلوت وحوادث حياتها ، الى الطريقة التى جرى عليها أبوها من تربيته . كانت شارلوت طفلة حسنة ذهيبية الشعر جميلة الملامح مليحة الطلعة . وكثيرا ما كانت تسترسل مع أحلامها فى صمت وسكون . وقد تمعن فى التطواف منفردة فى الغابات والحقول التى كانت تحيط بمهد نشأتها . وكانت شارلوت لاتزال فى سن الطفولة عندما المت بأبيها كارثة مالية انقصت من دخله بحيث أصبح من وسائل سعادته أن يعهد ببعض أطفاله الى عناية ذوى قرباء من العصب .

كانت شارلوت من نصيب عم لها قسيس واسع العلم على القدر موفور المال ، كفلها وعلمها القراءة فى كتاب توارثته أسرتها ، وهو عبارة عن نسخة كاملة من مؤلفات سلفها العظيم « بيير كورنى » .

نهلت شارلوت من ذلك المنهل العظيم ، منهل البطولة الوطنية الذى ظل طوال حياتها ينبع الفائض فى صدرها بكل ما أوحى اليها .

ولم تبلغ شارلوت الثانية عشرة من عمرها حتى فقدت أمها ، وقد ذهبت حياتها ثمناً لسادس أطفالها .

عاشت أسرة « دي كورداي » زماناً في بلدة « كاي » بينما كان السيد « دارمون » منهمكاً في دعوى قضائية أقامها ضد أقارب زوجته المتوفاه . دعوى من تلك الدعاوى التي كان يفتبط بها إذ ذاك أشرف الريف ويلذهم الاشتغال بها . والظاهر أن السيد « دارمون » قد نجح في دعواه ، لأن شارلوت استطاعت في سني شبابها أن تعيش مستقلة عن أهلها بعيدة عن بيتها بما كانت تملك من حطام يقوم بأودها . وقد قالت شارلوت لقضاتها - « إني أعيش من غلة ما أملك من عقار » .

وكان السيد « دارمون » قد أدخل شارلوت وأختها في مدرسة « سان ترينيتي » الشهيرة خلال إقامته ببلدة « كاي » . وكانت تلك المدرسة معهداً أرسطوقراطياً راقياً ، ولم يكن ليقبل أكثر من خمس فتيات شريفات ممن اخني عليهن الدهر يسميهن الملك بنفسه . ولم يقبل المعهد أن تنخرط شارلوت وأختها في سلك تلميذاته إلا بتوسط المقامات العليا ذوات النفوذ الكبير في فرنسا : هنالك قضت شارلوت بضع سنين واستطاعت بمواهبها أن تحوز منزلة ونفوذاً في ذلك المعهد . ومما لاشك فيه أن شارلوت كانت تظل هنالك مكبة على دراستها أو تبلغ درجة الرياسة أو تصبح راهبة متعبدة لولم تطرد هي ورفيقاتها من المعهد عندما قررت الجمعية الوطنية عام ١٧٩٠ إغلاق جميع معاهد العلم :

عادت شارلوت لتشارك أباه وأخوتها عيش الريف . على أن إرادتها الحديدية وآراءها المتطرفة ، لم تكن لتجعل حياتها في وسط أسرتها حياة مرضية لمثيلاتها ، فبينما كان أبوها وأخوتها من حزب الملك ومن غلاة الكاثوليكية ، كانت شارلوت ملقية بنفسها في احضان المذهب الشكي ، ومن غلاة الجمهوريين : وكثيراً قالت لقضاتها - « إني كنت من حزب الجمهورية ، من قبل أن يعصف بفرنسا عاصف الثورة » كانت شارلوت تميل إلى الدرس والاسترسال مع الفكر : مثلها في ذلك كمثل مدام « زولان » قريبتها . وقضت معظم سني حياتها الأولى مصطحبة تاريخ أبطال اليونان وروما ، ونهلت من فلسفة القرن الثامن عشر بقدر ما وحصل مستطاعها : أما تراجم « بلوتارك » فكانت سلوتها ورفيقها في الحل

والترحال . فكانت تتبّع حوادث الثورة الفرنسية بعناية تامة واهتمام ليس وراءه غاية لمستزيد :



مدام رولان ١٧٥٤ - ١٧٩٢

فلاغربة اذن إذا رأينا «شارلوت كورداي» بعد بضعة أشهر من بقائها في احضان أسرتها، عائدة الى بلدة «كاين» مرة أخرى . هنالك عاشت شارلوت مع احدي قريباتها المسنات مدام «دي برتفيل» حيث كانت تسكن في بضع حجرات في بيت متهدم قديم يعرف باسم «الجران مانوار» في وسط المدينة .

استكملت شارلوت في ذلك الوقت جمال الفتاة في شبابها وفتوتها . ولقد احتدم الجدل

بين الذين ترجموا عن حياتها على لون شعرها وعينيها ، أكانتا زرقاوين أو رماديتين . وعلى قامتها ، أكانت طويلة القامة أم قضيفتها ، وقد يمكن أن تتخذ الاوصاف التي ذكرت في جواز سفرها من كاين إلى باريس دلالة حسنة على أوصافها ، ولو أنه يصح أن يتطرق اليه الخطأ ، كما استدل على ذلك من الجوازات التي أعطيت خلال الحرب العظمى .

كانت شارلوت ، على ما جاء في جواز سفرها ، ذات شعر كستنائي قاتم ، رمادية العينين ، تبلغ خمسة أقدام طولا أو تزيد قليلا . أما أخلاقها وسلوكها فموضوع لم يختلف فيه اثنان . فكل الذين ترجموا عن حياتها متفقون على أنها كانت رضية الخلق مهيبة الطلعة لا تتكلم الا قليلا في المجتمعات ، ولم تشترك في مناقشة إلا وأثارت إعجاب محدثيها بما كانت تلقى عليهم من الآراء ، على قلة ما كانت تشترك في المناقشات . من ذلك حادثة وقعت لشارلوت في مأدبة أدبها العائلة احتفاء بأخيها وصديق له كان الأمل معقودا على أن تقترن به شارلوت ، وكان كلاهما على سفر للاشتراك في جيش الهجرة ، واقترح أحد الوجود أن يشرب نخب الملك . فلما امتنعت شارلوت على أن تشرب نخب الملك ، قال لها أحد الجلساء : أترفضين أن تشربي نخب الملك ، على ما يتصف به الملك من دعة ، وعلى ما في أخلاقه من فضيلة ؟ فأجابت شارلوت قائلة : « إني أعتقد أن الملك نبيل فاضل . غير أنه لم يحل بين

شعبه والمصائب !!» غير أن تطرف آراء شارلوت الجمهورية كانت كأراء «اولمب دي غوج» لم تصدها عن استنكار قتل الملك لويس السادس عشر .

كانت شارلوت في كل ذلك الوقت مكبة كل الا كباب على درس الحوادث المتتالية ، ولم يفتها أن تقرأ الجرائد الشهيرة ، وأن تدرس كل الرسائل التي كانت تفيض بها دور الطباعة على الناس ، سواء أ كانت الى جانب الثورة أم ضدها . وكانت تشاطر الجيرونديين آراءهم ، وتعطف على مبادئهم ، وعلى الأخص بعد أن اتخذ الجيرونديين في ٣١ مايو سنة ١٨٩٣ بلدة كاين مركزاً للدعوة الى الانتفاض على حزب اليعقوبيين ، الذين كانوا قابضين على زمام الحكم . وكان ييزو وبتييون



شارلوت كورداي ١٧٦٨-١٧٩٣

ولوفيه وباربارو ، وغيرهم من زعماء حزب الجيروندي محرضون أهل نورمانديا على الزحف على باريس ليحطموا الجمعية الوطنية . وكانت شارلوت تحضر اجتماعاتهم . وطالما سحت مدامعها على ذكر الفوضى التي كان يصفها الجيرونديين ذائعة في نواحي معبودتها «فرنسا» . على أن شارلوت كانت ذات طبيعة عملية . فلم تتحقق يوماً أن هنالك شراً ، إلا وعمل عقلها على اكتشاف ما يذهب به . وطبع في عقلها إذ ذاك أن «مارا» الذي

كان يلقب بصديق الشعب ، لم يكن في الحقيقة إلا عدو الشعب ، وأنه السبب فيما يلاقى الناس من الشدائد .

كان «مارا» من أشهر الصحفيين ، ومن أخصب كتاب الرسائل إنتاجاً في ذلك الحين . وكان مصاباً بمرض جلدي مستعص أحدث في عقله أنراً جعله يستحب الدماء ، ويستطيب سفكها ، حتى أصبح شغوفاً باهراقها : وكانت شارلوت تقرأ بامعان كل ما يظهر من آداب الثورة ، حتى أصبح «مارا» في نظرها عقبة في سبيل هناء فرنسا ، ودجال يفسد على المسيحية روحها ويهدم كيائها . وقام في ذهنها أن قلم «مارا» إن انقطع عن الكتابة ، ووقف عقله عن ابتكار أساليب الشقاء والشدّة ، سلمت فرنسا من مخالب الفوضى ، وارتدت الى السلام : لم تسأل نفسها يوماً : «ألا يمكن أن يحل مستبد آخر محل مارا؟» . لم تعرف نفسية

شارلوت سبيلا الى تناحر العواطف وتشاحنهما ، كما أحب سلفها العظيم « بيير كورنى »
أن يفعل بنفسه . ولم يلبث أن قام فى ذهنها أن « مارا » لم يكن إلا حيواناً
مفترياً يكاد يضحى بفرنسا على مذبح الحروب الاهلية ، حتى صممت على اهلاكه ،
وما أسرع ما خطت نحو قصدها وأقدمت نحو غايتها المحزنة . طرأت عليها هذه
الفكرة فى ٣١ مايو سنة ١٨٩٣ كما أخبرت قضايتها . ولم يمض على ذلك التاريخ
سبعة أسابيع قصار حتى أتمت غرضها ووصلت الى غايتها .

لم تقض شارلوت تلك الاسابيع السبعة بلا عمل ، بل كانت تنهياً للهبوط الى
باريس ، وكانت تعمل جهدها للحصول على جواز للسفر ، موهمة أن لها صديقة
هاجرت الى سويسرا وأن الفقر عضها هنالك بنابه السام ، وأنها تريد أن تتقدم
الى الجمعية الوطنية فى باريس لتعرض عليها بالنيابة عن صديقتها شكوى ، وعملت
على أن تأخذ خطابات توصية الى أشخاص فى باريس قد تستعين بهم . وأخذت
شارلوت خطابات التوصية من زعماء حزب الجيرونديين ، وكانت كثيرة الاختلاف
الى باربارو ، وكثيرا ما حادثته فى المسائل السياسية ، وزودها بخطاب الى
« دوبريه » عضو الجمعية الوطنية . ولقد قال باربارو بعد موت شارلوت أنه قد
شعر فى آخر مقابلة له مع شارلوت بشيء فى صوتها ملأه غموضاً وشكاً ، ولم يفقه
له سبباً . ولشد ما كان يود باربارو أن يعرف غايتها . فقد قل فيما بعد : « إننا
نحن الجيرونديين ، لو كان من غاياتنا أن نرتكب جريمة من يد مثل يد شارلوت ،
لما اتخذنا مارا موضعاً لانتقامنا . غير أن شارلوت لم تشر الى غرضها بكلمة ، ولا
بنظرة ، ولا بإشارة » .

وليس من غرابة فى أن تلاحظ مدام برتفيل ، التى كانت تساكنها شارلوت ،
أن الفتاة فى شغل دائم خلال تلك الآونة . دخلت عليها مرة فاذا بها غارقة فى
مدامعها . وما عتمت شارلوت أن جاوبت مدام برتفيل قائلة : « إنى أبكى على بلادى
وما أصابها من الشقاء ، وما نزل بأسرتى ووطنى من البلاء . لانه مادام « مارا »
على قيد الحياة ، فلا يستقر لسان دم فى هذه الدنيا »

قبل أن تغادر شارلوت بلدة كاين لآخر مرة ميمدة شطر باريس ، ذهبت الى
الريف لتودع أباه وإخوتها ، مخبرة إياهم أنها ستهاجر الى انجلترا ، حيث كان لها

كثير من الأصدقاء . ولما عادت الى كاين أخبرت مدام برتفيل أنها ذاهبة إلى الريف لتشغل نفسها بتصوير المناظر الطبيعية .

وفي اليوم التاسع من شهر يوليه بدأت شارلوت رحلتها حاملة حقيبة صغيرة للملابس ، ونسخة من تراجم بلوتارك ، ولوحاً كبيراً من ورق التصوير ، كان آخر ما أعطت إلى طفل صغير ابن جار لها يسكن المنزل الذي كانت تسكنه . صادفته شارلوت في آخر السلم فنادته : « إلى يا روبرت . خذ هذا . فإنه لك . كن ولدا طيب القلب وقباني . إنك لن تراني بعد الآن . » ولما أن قبلها شعر بدموع حارة تجري على خديه من فوق خديها .

في جلبة باريس فتن شاب نبيل بجمال شارلوت ، وكان مسافراً معها . فسألها عن اسمها واسم أسرتها ليتخذها من بعد زوجاً له ، غير أن شارلوت تمنعت بما يسمح المقام واعدة إياه بما طلب اليها فيما بعد .

وفي ظهيرة اليوم الحادي عشر من شهر يوليه وفدت مهاجرة كاين إلى باريس واستأجرت حجرة في أوتيل دي بروفيدانس رقم ١٧ بشارع فيو أوغسطين . كانت متاعب الزوى قد أخذت من شارلوت مأخذها ، حتى أنها هجعت منذ الساعة الخامسة ، ونامت نوما هادئاً إلى صبيحة اليوم الثاني ، يوم الجمعة . ولما استيقظت ذهبت إلى منزل العضو دوبريه ، وهي على أمل في أن تراه وتقدم إليه وصية باربارو . ولكنها أخبرته أنه في الجمعية ولا يعود قبل المساء . فعادت شارلوت إلى فندقها وافقت يوماً بين القراءة والتأمل ، حتى إذا كانت الساعة السادسة ، عادت إلى منزل دوبريه فوجدته على المائدة يتناول طعام العشاء ، غير أنه ترك مائدته ليحدث شارلوت في الصالون ، ووعدّها بأن يصحبها في الغداة لترى « جارا » وزير الداخلية ، ولتحدثه في أمر صديقتها التي تقطن سويسرا . وهنا نصحت شارلوت لدوبريه أن يفر من باريس إلى كاين قبل مساء الغد وكان سلوكها كما قال دوبريه غامضاً ، وكلماتها أشد غموضاً . وفي مساء ذلك اليوم ، يوم الجمعة ، صودرت أملاك دوبريه ووضعت تحت تصرف الحكومة . وكان دوبريه متهماً بالعطف على الجيرونديين المغضوب عليهم . ومع كل هذا فقد وفي دوبريه بوعدده وصحب شارلوت ليقابلها « جارا » ولكنها لم يقابلاه بسبب ما ، ونصح دوبريه لشارلوت بأن تنصرف عن الاهتمام بشأن صديقتها ، لأنها لم تحصل منها على وكالة

تسوغ لها الكلام في شؤونها . ثم عاد دوبريه مع شارلوت إلى فندقها وتركها هنالك .

خرجت بعد ذلك شارلوت من نزلها ويمت شطر الباليه رويال . وهنالك اشترت مديّة من مدى الموائد مرهفة ياترة ، لاخنجرآ كما يقول البعض ، ودفعت فيها ثلاث فرنكات ثمناً ، ثم اخفها تحت منديلها وجلست هنيهة تحت أعمدة القصر كان تصميم شارلوت أن تقتل مارا في قاعة الجمعية . غير أنها تيقنت من أنها اذا أتت ذلك الفعل قتلها العامة ومزقوها اربا ، وأنها ان ماتت هذه الميته ذهبت غير معروفة ولا مذكورة بلسان ، ولم تترك من وراءها أثراً ، فتضر بسمعة أسرته .

منذ أن وصلت شارلوت إلى باريس تواترت لديها الاخبار عن مرض مارا وأنه لا يستطيع أن يذهب إلى الجمعية ، بل انه لا يقدر على مغادرة منزله . ولم يكن لديها اذ ذاك من وسيلة لانقاذ غرضها الا البحث عن طريقة أخرى ، ولذلك اضطرت على الضد من ارادتها أن تلجأ إلى الخديعة ، فعمدت إلى كتابة مذكرة لترسل بها إلى مارا ووعدته فيها أن تعطيه أخباراً هامة عن حركات كايين الثورية ، أما تاريخ وصول تلك المذكرة إلى مارا وطريقة ايصالها فموضوع يختلف فيه المؤرخون . فيقول البعض بان شارلوت أودعت البريد رسالتها ، وانها لم تصل إلى مارا الا في المساء قبل زيارة شارلوت الاخيرة لمنزله ويقول البعض الآخر ان شارلوت سلمت الرسالة في منزل مارا بنفسها ، ولا شك في انها زارت منزله مرتين على الاقل : الاولى في الصباح ، والاخرى في المساء ، حيث كان يقطن رقم ٢٠ بشارع الكوردلييه ، والآن يسمى شارع مدرسة الطب . ولا ريبه أيضاً في أنها اخفقت في أن تقابل مارا في المرة الاولى . أما الفترات الواقعة بين الزيارتين فقضتها شارلوت في فندقها منهمكة في كتابة اعتذار وتبرير للاجبال القادمة عن فعلتها ، وخطاب لمارا تحضه فيه على مقابلتها وذكرت له فيه انها تعيش وأنها قاست كثيراً من الآلام في الدفاع عن قضية الحرية .

كانت شارلوت لابسة في الصباح ثوبا قاتم اللون ، غير أنها ارتدت في المساء ثيابا بيضاء ناصعة ، ويقول البعض ان ثيابها كانت بيضاء مزركشة بنقط قاتمة : وكيفما كانت ثيابها فالثابت أن شارلوت قد عنيت كل العناية بملابسها . وفي الساعة

السابعة من المساء خرجت من فندقها ، وأخذت سميتها نحو شارع الكورديليه .
ولما وصلت إلى ذلك الشارع أوقفت عربتها تجاه منزل مارا ، وهناك رفض
الكونسيرج — أى الحارس — أن يسمح لها بالدخول

كان مارا مريضاً أربع سنوات متوالية قضاهما فى الم وسقم ، حتى قال يوماً
أنه ينزل عن كل ماهو محوط به من شرف وعظمة فى هذه الدنيا تلقاء أيام يقضيها
ممتعاً بصحة جيدة . وعلى الرغم من ذلك عاش مارا فى خوف مستمر من شبح
القتل والانتقام . ومنزل مارا صاحب ومدير جريدة « صديق الشعب » كان
فى الواقع مطروقاً بالزائرين والزائرات ، غير أنه لم يكن يسمح بقاء مارا الا للاصدقاء
الاخصاء والزائرين الذين يحملون رسائل توصية مبنية لاشخاصهم وأغراضهم .

رفضت شارلوت فى هذه المرة أن تصد عن باب مارا : وعند ذلك لاقتها
سيمون افيرار خلية مارا لدى الباب ، وسألتها ان كانت هى كاتبة الخطاب الذى
وصل ليد مارا فى ذلك الحين . فلما اجيبت بالايجاب عادت لتعرف ان كان مارا
على استعداد للملاقة الزائرة . وقبل مارا أن يلاقى شارلوت وقادت سيمون الزائرة
إلى الحجرة الداخلية حيث كان يعمل مارا ، وحيث كان محل استحمامه معاً .
هنالك خرجت سيمون ولم تنس أن تترك الباب نصف مغلق حتى تستطيع أن
تسمع أقل حركة تحدث فى الحجرة :



جان بول مارا ١٧٤٣ — ١٧٩٣

وجدت شارلوت نفسها فى حجرة ضيقة
ضعيفة الضوء . وكل ما وجدت من الاثاث
فى تلك الحجرة حوض الاستحمام الذى كان
يقضى فيه التعيس مارا ليله ونهاره . كان يظل
غاطساً فى الماء إلا رأسه واكتافه واعلى صدره
وذراعه الايمن وكان مارا اذذاك لا بساً عصابة
قدرة تغطى شعره الكث ، وتبرز من تحتها
جبهته الصغيرة المسطوحة وعينييه الضيقتين ،
وفه الواضع الخفيف . ولم يكن فى استطاعة مارا

أن يحتمل عبء الحياة الثقيلة إلا على تلك الحال ، يغمر الماء أكثر أعضاء جسمه .
وكان يتصل بحوض الحمام لوح من الخشب يستعمله مارا كمائدة للكتابة تغطيها

الالاوراق والخطابات المفصوصة والمقالات غير الكاملة : وبجوار الحمام مائدة أخرى من خشب البلوط عليها دواة من الرصاص .

ولما أن دخلت شارلوت كان مارا قابضاً على قلمه يكتب في ورقة وقد سود نصفها بحبر دواته . وكان خطاب يريد أن يبعث به إلى الجمعية يطلب فيه نفي من بقي من أسرة البوربون في فرنسا .

سأل مارا شارلوت عن الحالة في نورمانديا ، وسأل عن أسماء أعضاء حزب الجيرونديين الذين فروا إلى كاين ، ولما أجابت قال لها مارا : « حسنا . قبل أن يمر أسبوع ستعمل فيهم الجيولوتين » :

ولم يكده مارا يتفوه بهذه الكلمات حتى شهرت شارلوت مديتها التي اشترتها في صبيحة ذلك اليوم من تحت منديلها ، ومن غير أن تخطيء قصدها غيبتها حتى نصابها في قلب مارا ثم نزعتها . وكان الموت موقوتاً ، ولم يترك لمارا من وقت للاستغاثة وطلب المعونة الا أن نادى سيمون للنجدة فأسرعت اليه ووجدت رسول صاحب المطبعة والطاهي في صراع مع شارلوت حتى استقويا عليها والقيها على الأرض . وعبثاً حاولت سيمون أن تقف سيل الدم المنسدف من قلب مارا بيديها . وضمد طبيب أسنان كان يعيش في نفس المنزل جرح مارا ، ثم نقل من مستحضره إلى فراشه . غير أن نبضه كان قد وقف وانتهت حياته .

من بين الحوادث التي وقعت ساعة القتل حادثة واحدة كادت أن تفقد معها شارلوت ضبط نفسها وعواطفها . فان حزن سيمون افيرار وأختها كاترين كان عميقاً مؤثراً . غير أن شارلوت قد عاودتها فكرة أن مارا لم يكن إلا حيواناً متعطشاً للدماء ، بعيداً عن الإنسانية . حينذاك قالت شارلوت « اني قتلت شخصاً لا نقد الفأ » غير أن عبرات سيمون وأختها قد أظهرت لشارلوت أن فريستها لم يكن إلا بشراً من نوعها ، وأنه رجل جدير بأن يحبه النساء

لم يترك لشارلوت في تلك البرهة من الوقت ما يمكنها من الانصراف الى التأمل العميق . لأن الغرفة كانت قد اكتظت بالناس . وانتشر خبر مقتل مارا وذاع في أحياء المدينة ، ووفد على منزله سيل من البشر تماوج صفوفه ، وما أسرع ما أقبل ضباط الشرطة وأعضاء لجنة الامن العام . وبقي أعضاء اللجنة في الغرفة الخارجية حيث بدأ سؤال شارلوت بينما كانت جثة مارا في الحجرة الثانية تلوثها الدماء

لقد عمل المحققون جهداً مستطاعهم ليستخلصوا من شارلوت أى شىء يستدل منه على أنها أتت فعلتها تحت تأثير الجيرونديين المطاردين . غير أن شارلوت احتفظت فى ذلك الموقف الرهيب المخيف بمواهبها وقوة نفسياتها .

تجراً أحد المحققين على أن يضع يده تحت ثوبها على أمل أن يعثر على ورقة تثبت اتهام الجيرونديين . وكانت شارلوت موثقة اليدين ، ولم يكن فى مستطاعها أن تدافع عن نفسها . غير أنها دفعت اعتداء ذلك الرجل بجسمها وبقوة وبشدة ألقتة على الأرض ، حتى لقد فككت أزار قميصها من الامام . أما بقية أعضاء اللجنة فقد أخذوا بفضاعة العمل الذى أتاه زميلهم ووحشيته . حتى أنهم أمروا بحل قيودها لتستطيع أن تصالح ملابسها وسمح لها بأن تلبس قفازاً تحت أصفادها . ظل التحقيق مع شارلوت قائماً حتى الساعة الثانية بعد منتصف ليل الأحد ، إذ سمح لها بأن تذهب الى سجن الآبى .

بقيت الجماهير محيطة بمنزل مارا وقد علت أصوات الناس بطلب الانتقام ممن أودت بحياة « صديق الشعب » . فلما فتح الباب وظهرت شارلوت هجمت الجماهير عليها بقوة ووحشية صائحة صيحة الغضب . وهنا خانت شارلوت قواها لأول مرة ، وتولاهم الاغماء ، فلما استفاقت عجبت كيف أنها لا تزال على قيد الحياة .

شغلت شارلوت فى سجن الآبى الذى اختير لسجنها نفس الغرفة التى سجنّت فيها مدام رولان من قبلها ببضعة أسابيع . وبعد ثلاثة أيام نقلت شارلوت الى سجن « الكونسيرجيرى » وهناك كتبت خطابين . أما أسلوبهما فاستمد من أسلوب سلفها العظيم « بيير كورنى » . ولقد نالا شهرة واسعة كما أملت شارلوت حين أنشأتها . كان أحد الخطابين لباربارو والآخر لأبيها . وفى كلا الخطابين تعددت أن تظهر حقيقة نفسها .

كتبت شارلوت الخطابين وهى على علم بأنه ربما يقرأها غير باربارو وأبيها . فحسنت فيهما خطورة الانتقاض الجيروندى وأهميته لأنها لم تكن تعرف أن حركة الجيرونديين كان قد قضى عليها ، وأن فعلتها تكاد تكون النتيجة الوحيدة لدعوة الجيرونديين فى نورمانديا ، وأن ثوار الجيرونديين قد فعل بهم جيش اليعقوبيين فى فرنون وانتهى من أمرهم .

أخبرت باربارو فى خطابها اليه ان ما ألقت من شجاعة المتطوعين الجيرونديين

الذين رأتهم ميممين نحو باريس في الثامن من شهر يولييه حملتها أخيراً على اغتيال مارا ، وذكرت له في الخطاب أن عويل النساء في ساعة القتل وصراخهن كان السبب الاوحد الذي هيج أعصابها . ثم قالت في خطابها : « إن من يريد أن ينقذ بلاده لا يجب أن يتلكأ مفكراً في الثمن المبذول » .

وكتبت الى أبيها انها كانت مصممة على أن تموت يوماً غير معروفة ولا مذكورة . غير أنها ذكرت في جواز سفرها اسمها الحقيقي وكان كافياً لمعرفة شخصيتها وانها لتشعر بفخر عظيم بعد أن أتت فعلتها ، وان ما عملته قد أنقذ بلادها لأن السلام سيحل محل القوضى . وبعد ذلك أرخت خطاب أبيها بهذه العبارة : « اليوم الثاني من تحقيق السلام » .

ولقد ذكرت ما سوف تلاقيه من الموت المحتوم جزاء عملها فقالت في خطابها : إن أسرتها قد تسر وتبتهج كلما فكروا أنها — « في سلام ودعة حيث تشارك بروتوس وغيره من أبطال التاريخ القديم منزلتهم الرفيعة في عالم الغيب » . ثم انها سألت أباهما الصنفح عنها لانها تصرفت في حياتها من غير أن يأذن لها بها . قالت : « إني إن كنت قد أغريتك على اني ذاهبة الى انجلترا ، فذلك لاني أملت في أن أموت غير معروفة من أحد . واني لامت اليك أن تنساني ، ولديك الذين خلفتهم في كايين يقومون بعبء حمايتك . ولقد اخترت للدفاع عنى المحامي جوستاف دوليه دى بوليكلولان . وهذه مسألة شكية فقط ، لأن مثل فعلتى لا يَحتمل دفاعاً . أستودعك الله يا أبى العزيز . واني لاناشدك الله أن تنساني ، واذا لم تنسنى ، فلا أقل من أن تسر بما هيا لى القضاء والقدر . إن غرضى شريف . أقبل أختى العزيزة التى أحبها من كل قلبى »

اعتقدت شارلوت انها أصبحت من بطلات عصرها ورغبت فى أن تخلد ذكراها . لذلك سمحت بأن تصور فى السجن وأوصت المصور أن يرسل نسخة من صورتها الى أسرتها . ولقد ذكر المصور عناية شارلوت بزینتها وانها اتفقت وهى فى السجن ست وثلاثين فرنكا على المعطف الذى كانت ستلبسه يوم اعدامها وكانت محبة للنظام فى كل أعمالها وطرق حياتها . وكان فى جيبها إبرة حياكة فى ساعة القبض عليها . وقبل أن تغادر كايين لم تنس أن تترك لمريبتها ما يقوم بأودها وأرسلت من الحوانيت بعض هدايا للبنات صديقاتها اللاتى صرفت وإياهن زمان .

شبابها ، ووزعت عليهن كل كتبها ما عدا نسخة من ترجم بلوتارك استصحبته معها .
ولقد حاول الذين حاكموها فى المحكمة العسكرية عددة مرات أن يستخلصوا
منها اعترافا يمكن أن يبرهنوا به على أنها كانت مدفوعة لارتكاب جريمة القتل
بتحريض الجيرونديين .

سئلت مرة : « من أوحى إليك بتلك الكراهية الشديدة »
فقلت : « لم أكن محتاجة الى وحي أحد . فان كراهيتى كانت كافية من ذاتها »
س : « إن ما أتيت من فعل لا بد من أن يكون قد اقترح عليك »
ج : « إن الاعمال لا تنفذ تنفيذا حسنا الا اذا أتت من قلب الانسان مباشرة »
لقد كاد حزن سيمون افيرار أن يفقد شارلوت ضبط نفسها وعواطفها فى
المحكمة كما حصل لها من قبل ساعة قتل مارا . ولم تستطع أن تصفى لشهادة سيمون
فأوقفتها معلنة أن « نعم أنا التى قتلت » كذلك لم تستطع شارلوت أن تنظر
الى المدية التى قتلت بها عند ما عرضت عليها ، فأدارت رأسها بعيدا عنها وقالت :
« نعم أعرفها » .

ولو لم يقيم فى نفس شارلوت هذين الانفعالين ، انفعالها من حزن سيمون
ومرآها المدية ، لبقيت طول مدة المحاكمة حافظة لقواها النفسية كاملة .
ألفت شارلوت ان أحد ضباط الحرس الوطنى حين المحاكمة كان مشغولا بأخذ
صورتها . فابتسمت وأدارت وجهها نحوه حتى تتمكنه من أن يحسن تصويرها .
وكان المصور « هويه » الذى بدأ بأخذ صورتها من قبل كاد أن يكمل ما بدأ به فى المحكمة
بعد أن تم اتهام شارلوت وصدر حكم الموت عليها ، وعادت إلى سجنها
التقضى آخر ساعاتها فى الحياة ، أرسلت إلى المصور « هويه » ليكمل الصورة
وأوصته أن يرسل نسخة منها لاسرتها . وقبل أن يتم المصور عمله طرق المنفذون
باب الحجر . ولما رأت المقرض والقميص الاحمر ، امتنع لونها قايلا وقالت
« أتم كل شئ »

ثم نظرت فى الصورة غير الكاملة وقالت للمصور « سيدى . لا أعلم كيف
أشكرك على المتاعب التى تجشمتها من أجلى » ثم تناولت المقرض من المنفذ وقصت
خصلة من شعرها وأعطتها للمصور قائلة « سيدى . أشكرك جزاء ما خدمتنى .
ان هذه الخصلة هى كل ما أستطيع أن أعطى اليك عنوانا على اعترافى بجميلك »

ولما دخل قسيس إلى حجرة سجنها أخبرته أن يشكر عنها الدين أرسلوه إليها ،
وانها لا تريد أن تقوم بأى واجب كهنوتى قائلة — « ان كل ما أستطيع أن أقدم من
تضحيات لله ، هي قطرات الدم التى أرققتها ، ودمى الذى أ كاد أهدره الآن »
فى الساعة التاسعة من مساء ١٩ يوليه مرت شارلوت لآخر مرة تحت اقبية
سجن « الكونسيرجيرى » ودخلت عربة السجن التى كانت فى انتظارها .

كانت الجماهير تتماوج متكاثرة حتى أن نقل شارلوت من السجن إلى ميدان الثورة
استغرق ساعتين كاملتين . ولم يكذبداً نقل شارلوت لتنفيذ الحكم فيها حتى هبت
عاصفة شديدة على باريس . غير أن السماء انكشفت بسرعة ، وما كادت العربة تمر
على الجسر وتنحدر إلى شارع سان أونورى ، حتى بزغت شمس المساء فى كل ابتهما
وعظمتها ، فغيرت أشعتها المنعكسة من ملامح الشهيدة عندما حملت فى وسط
الجماهير . ولو أنها تماالكت كل قواها .

ولما وقع نظر شارلوت على الجيولوتين امتنعت هنيهة . ولما فصلت رأسها عن
جثتها ، حملت الوحشية أحد مساعدى الجلاد على أن يحمل الرأس ويرمى به إلى الجمهور .
ذلك لانه كان من الشغوفين بمارا . ولقد قال البعض ان وجه شارلوت قد احمر قليلا :
وهناك قامت ضجة شديدة لم تهدأ حتى التى ذلك الوحش الضارى فى أعماق السجون

ان فتاة فى جمال شارلوت ودعتها ، لا بد من أن يكون لها من يعجبون بها .
ولقد مر بنا ذكرك ذلك الشاب الذى رافق شارلوت حين سفرها ، ولم يكذبداً يراها
حتى وقع فى شرك غرامها ، وأراد أن يطلب يدها للزواج . وليس فى مستطاعنا
أن نعرف إن كانت شارلوت قد أجابت لبعض محبيها داعى غرامهم أم أن كراهيتها
لمارا كانت قد قضت على كل شهوة أخرى فى قلبها .

ومما يروى أن شارلوت قبل أن تغادر كاين كانت تكتب شاباً من فتيان
المدينة يدعى فرانكلين ، تطوع فى جيش الجيرونديين وحضر استعراض ٨ يوليه .
ولما أن مر هو ورفاقه تحت شرفة المنزل الذى كانت تقطن فيه شارلوت ألفى بيتيون
وهو أحد أعضاء حزب الجيروندي ، أن شارلوت قد امتنعت قليلا وفاضت شؤونها ،
إذ ذاك سألها بيتيون : « ألا تريد أن يذهب المتطوعون ؟ » — ولكنه
لم يلق جواباً :

لما ماتت شارلوت انقطع فرانكسين في أعماق الريف حيث مات بعد قليل .
موصياً أن تدفن خطابات شارلوت وصورتها معه في قبره . وبعد أعوام ، على ما
يروى بعض المؤرخين ، فتح التابوت ، وفيه اثر على خطابات وصورتها .

بين أيدينا قصة أخرى أصح مأخذاً وأقرب تصديقاً . هي قصة ذلك الشاب
الالماني « آدم لوكس » الذي وفد من « ماينز » ، وكان من أولئك الذين يعتقدون
بأن الثورة لا بد من أن تنتج أقصى السعادات وأكبر المنافع التي لا يقدرها
اعتبار ولا تحصرها مخيلة . وكثيراً ما حاول « لوكس » وصحبه الفتيان أن يكون
لمدينتهم شرف الانضواء تحت لواء الجمهورية الفرنسية . لذلك أوجد « لوكس »
ليذهب الى باريس ويلقى على الجمعية مطالب مدينته ورغبات أهلها . غير أنه من
سوء الحظ لم تكد أقدام ذلك الشاب تطأ أرض فرنسا حتى تبددت أحلامه .
وذهبت هباء : رأى والأسف يملأ جوانحه فتاة جميلة ، هي في الواقع أنبل
رسول للحرية ، قد ضحت بحياتها في سبيل القضية العامة .

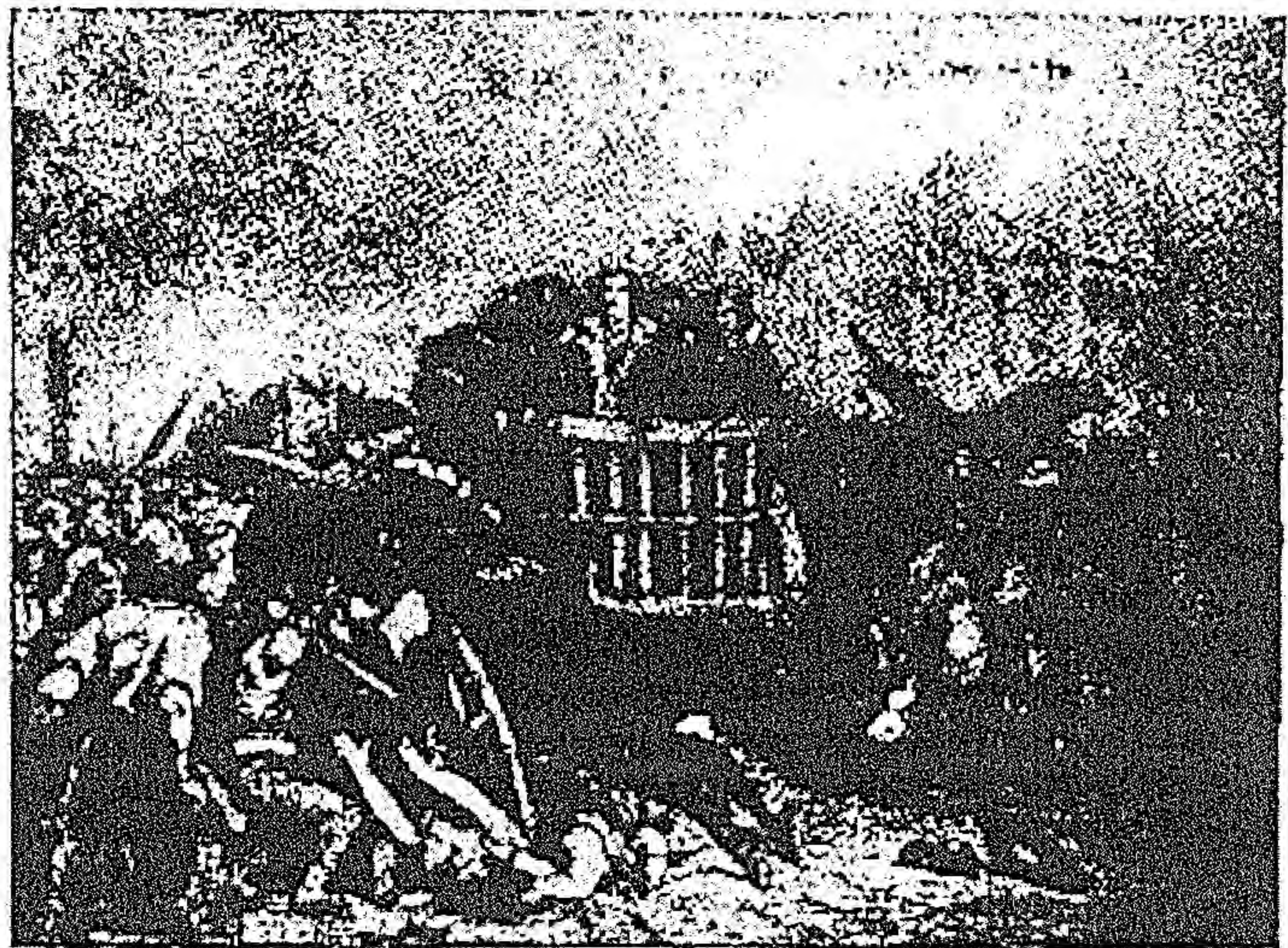
لم ير « لوكس » شارلوت سوى مرتين . مرة في المحكمة الثورية ، وأخرى فوق
آلة الاعدام ، ومنذ ذلك الحين ثبت في رأس « لوكس » فكرة أن يشاطرها
خاتمة حظها في هذه الحياة . لقد خيل اليه أن الجيليوتين تلك الآلة الجهنمية التي
ذهبت بحياة شارلوت لم تكن إلا مذبحاً مقدساً . لذلك ثشوف أن يموت تحت
فأسها الباترة ، فحمل على الجمعية الوطنية ووجه لها سهام مسددة من النقد والتجريح
لتحبوه ذلك الشرف ، وطلب من الوقت نفسه أن يقام لشارلوت تمثالاً لذكراها
ينصب حيث ماتت وأن يكتب عليه هذه الكلمات « أعظم من بروتوس » .
ولقد رغب ذلك الشاب في الموت رغبة صادقة ، فحمل على الجمعية واليعقوبيين
معاً حملات صادقة كانت نهايتها القبض عليه واتهامه . وفي الرابع عشر في شهر
سبتمبر سنة ١٧٩٣ ناله من الجيليوتين مانال شارلوت .

ويظهر أن قصة آدم لوكس تحقق ما قال المؤرخ ميشليه من أن دم شارلوت
قد أوجد ديناً . غير أن ما يصح أن يقال في شارلوت من هذه الوجهة يصح أن
يقال مثله في مارا . فإن اتباعه كانوا مستهينين في تقديسه استماتة اتباع شارلوت
من تقديسها . بل أنهم كانوا أكثر عدداً . وكان من بينهم زرافات من النساء
في باريس والاقاليم . وعلى الاخص النساء المنتميات الى الاندية الثورية .

لان مارا قد كان قد خص من بين كل زعماء الثورة باستعداد خاص في استخدام النساء . ومن مهيئات القدر العجيبة ان مارا كان قد اقترح أن يسلم عضوات الناديين الثوري والجمهوري بالخنجر : وكان نساء نادى « ماكون » يسمين أنفسهن « نساء مارا المقدسات » كذلك اشتراك في مظاهرات ١٦ ، ١٨ ، ٢٨ يوليه الآلاف المؤلفة من النساء . وكانت قد أقيمت تلك المظاهرات الفخمة حباً في أحياء ذكرى فريسة شارلوت . ويفخر عضوات النادى الثوري والنادى الجمهورى ، بأنهن أول من بثن فكرة إقامة مسلة تذكارا لمارا في ميدان الريونيون وهو الآن ميدان « كاروسيل » . والرجال إن انكروا على النساء ذلك الفخر فان مخلفات النادى اليعقوبى ، تدل على ان « بولين ليو » وكانت إذ ذاك رئيسة نادى « سان أبوستاس » قادت في ١٥ اغسطس مظاهرة عظمى . وكان غرضها ان تواجه زعماء اليعقوبيين لتسألهم الا كتاب لاقامة مسلة تذكارا لمارا . ولكن حدث أنه لم يقيم من شئ سوى مسلة خشبية لم تعمر طويلا . وقبل أن يتمكن الداعون لمارا من إقامة تذكارتها له ، كان تيار الافكار السياسى قد تحول وأخذ سمياً آخره فبعد ان كانت جثة مارا قد شرفت بان ترقد في البانتيون ، مقرر العطاء ، نبشت في قبرها والقيت بعيدا عنه .

إن احتفال

اغسطس الذى أقيم
لتدشين هذه المسلة
الخشبية كان احتفال
أليق به أن يقام لشئ
أعظم من هذا . وقد
لعب فيه النساء دورا
ذا شأن عظيم ، اذ
خرجن في مظاهرة
رهيبه من نادى
« سان أبوستاس »



الى ساحة الموت

عربة تحمل المحكوم عليهم بالموت في الثورة الفرنسية
الى ساحة الاعدام ومن بينهم مدام رولان

وهمشين وراء ذلك الحوض التاريخى الذى كان ينطش فيه مارا ، وحملى فوق

منصة عالية مخلفات نبيهم مارا ، كرسيه ومائدة كتابته وقلمه ودواته . وهؤلاء النسوة بذاتهن كن قد تبعن من قبل شارلوت يشيعنها بالاعنات وهي ذاهبة الى الجليوتين . وكن يعتقدن ، كما اعتقد غيرهن ، وكما اعتقدت مدام « أوامب دى غوج » ، ولو أنها لم تكن من نصيرات مارا ، أن قاتلته وحش ضار ، مجرد عن الانسانية ، جدير بكل صفات السقوط والاسفاف ، حتى لقد أنكرت الصحافة المناصرة لمارا على شارلوت جاهلها ، فوصفتها بأنها شبح مخيف يعلو وجهه نفاط ظاهر إن فعلة شارلوت ، لبعدها عن واجبات النساء ، قد أضعفت القضية النسوية في فرنسا ، على الرغم من أنها كانت قد أخذت في الاضمحلال . كذلك لم تكن فعالتها باذلل تأثيرا في تحطيم الحزب السياسى الذى كانت تنتمى اليه ، منها في اضعاف القضية النسوية : لذلك صاح « جيروندين فرنيو » من أعماق سجنه قائلا : « إنها حطمتنا . غير أنها عامتنا الموت كيف يكون » .

اسماعيل مظهر

مدى الجهل

أصبحوا من جهلهم أضحوكة ودليل الجهل بل آى العبر
لا يرون النهضة اليوم سوى زلة للناس قد لا تغفر
والذى يرجو انحراف الناس عن عادة الاجداد... هذا قد كفر...،

نور التجديد

أيها العابر أمواج الدجى انت سرفى فؤاد الليل بات
خفف الحزن عن النفس بما يبعث الافق لنا من نظرات
سوف يأتى البدر ، يمحو نوره ظلمات الليل . فانظر : فهو آت...
هكذا التجديد يمحو كل ما خلف الجهل ، وعصر الظلمات
القاهرة . حسن كامل الصيرفى